إطلالة المؤرخ الشيخ سالم بن حمود السيابي على الشؤون العمانية في حوارات من الشاطئ البعيد

الحلقة الرابعة

الوالد يستعيد حسرة ضياع المجد العماني في أفريقيا.. ولقاءات العمانيين في بمبي

بقلم: حمود بن سالم السيابي

إنه اليوم الثاني لنا في بمبي، وغرفتنا في فندق دبلومات على موعد لزائر للوالد هو قنصل عمان في بمبي سعادة سالم بن حكيم الخصيبي الذي دخل الغرفة تسبقه روائح القرنفل وهفهفة شوانب زنجبار وانكسار الهزيمة لفقداننا شطرنا الافريقي. يجلس الرجل قبالة والدي فيحرثان الجغرافيا والتاريخ ويندبان حظ شعب تآمرت عليه القوى الغاشمة فجردته من بعض تطلعاته الحضارية، وهاهي نفس القوى الغاشمة التي لم تحافظ على العهدة السلطانية فسلمتها لأوباش بر الزنج، تنهار هنا في الهند وتتكسر أحلامها وتعود القهقرى الى ضفاف التايمز من جديد تنفض غليونها من بقايا تبغ كيرالا، وكأن بريطانيا التي خسرت درة التاج البريطاني في اربعينيات القرن العشرين تتواطأ وتنتقم فتسلم درة التاج البوسعيدي لكارومي.

قال سالم بن حكيم وهو يتذكر بحسرة فردوس أفريقيا الذي لم يعوضه جمال الهند الذي يرتع في جنباته كقنصل لبلاده إن علماء عمان وقضاتها في زنجبار كانوا القناديل التي اضاءت ليل افريقيا قبل ان تضيء الكهرباء بيت العجائب، وقبل أن يحول السلطان برغش ليل الستون تاون إلى نهار، فانتم القضاة بركة ونور ومشعل هداية.

ثم انتقل ليعرض في حضرة القاضي الذي يمثل بين يديه شهادته عن ضياع أفريقيا وبراءة العسكريين العمانيين من مسؤولية ما حل ببلادهم إذ لم تتح لهم الإمكانات ليدافعوا ببسالة وشرف عن العرش العماني في زنجبار والدولة العمانية في أفريقيا فكانوا ضحية مؤامرة كبيرة وتواطؤ أكبر، فقد كان يومها برتبة ملازم ثانٍ في مركز شرطة ماليندي وهو المركز المعني بحماية قصر السلطان والميناء ومدينة زنجبار، وقد تصدى بإمكانياته المحدودة

وجه من بلادي

الصورة بعدسة: عبدالله العبري

هي اليد التي تطعم العالم،
وتُلَقِّمُه بأطراف بنانها
رغيف المحبة المبارك.
هذه اليد التي تمر على اللهب
بردا وسلاما، تمزج الطحين
بالماء وتمده على الصاج
وتسكب عليه من فيض حنانها،
لنتذوقه هنيئا سائغا.
لا مذاق أشهى من خبز الأمهات،
ولا رائحة أزكى من عجينها،
ولا صباح أحلى من ذلك
المضمخ بأريج حنانها الصافي،
حينما تمنحك رغيفا ساخنا
وقبلة دافئة
ودعاء صادقا من القلب.

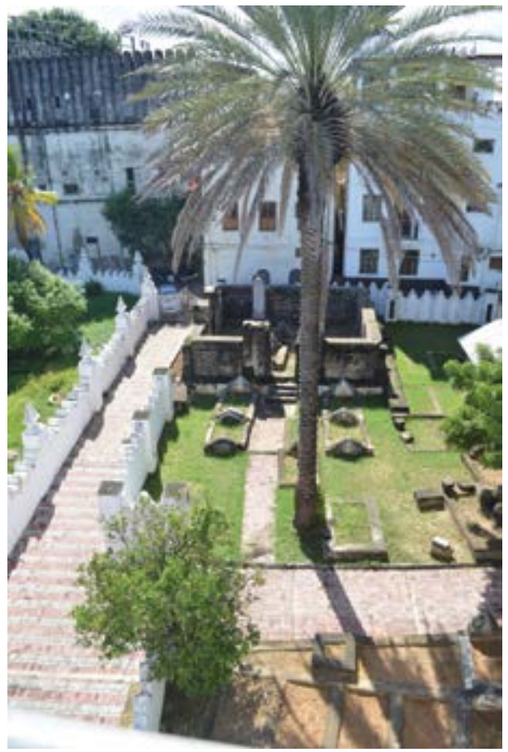

المقبرة السلطانية في زنجبار

ضمن المنظومة التي تعالج اختلالات الحالة الأمنية وتضبط بوصلتها باتجاه الصالح العام.

غادر ذلك العملاق غرفتنا بفندق دبلومات تاركا لنا زنجبار أقمارا وشعراء وسلاطين وعلماء، لنعيش بعضا من الجنائن المعلقة بخيوط من حرير، ونستعيد بالكثير من الحسرة والألم والحزن حكاية شعب ركب أبناؤه البحر لأكثر من عشرين قرنا من الزمان ليؤسسوا وجودا عربيا واسلاميا في الشرق الأفريقي، ويقيموا دعائم ملك عربي، وعماني ليأفل شمسه في ستينيات القرن العشرين وتبقى شواهده ومآثره ورموزه وشوامخه شاخصة. حاولت استعادة المشهد بعد أن عز استعادة المكان الذي شكله العمانيون وضخموه في الذاكرة.

قلت للوالد كيف قرأت سقوط زنجبار كمؤرخ؟ فقال: «زنجبار ثابتة على الخارطة لم تسقط بل أهلها الذين سقطوا، فالديار كالعباد كما يقال تشقى وتسعد، ولكن العمانيين فرطوا فيها فضاعوا وضيعوها.

ولقد شكلت زنجبار دوما حلما للعمانيين لارتيادها، وحين كنت واليا على نخل هممت أن أرحل إلى زنجبار بعد انتهاء مهمتي في تلك الولاية خاصة وأن ما وصلنا عنها من أخبار كانت مشجعة كوجود مطبعة تعنى بكتب المذهب وتاريخ وآداب عمان ولازدحام ذلك الشطر الافريقي من الوطن بعلماء أجلاء كأبي مسلم البهلاني والشيخ علي بن محمد المنذري والشيخ سعيد بن ناصر الغيثي والشيخ الأمين بن علي المزروعي وغيرهم من العلماء والوجهاء.

وقد حفزني أن الكثير من الأقارب والأصدقاء تيمموا شطر ذلك البر كالعم سليمان بن شامس السيابي وكثير من أبناء غيل الدك وقد تبعهم فيما بعد الشيخ خلفان بن جميل السيابي رغم معارضة الإمام الخليلي لسفره لحاجة البلاد إلى علم أمثاله ولأن الكثير من الأصدقاء ممن سافروا بعثوا إلي بالكثير من الرسائل تستعجلني في اتخاذ قرار الهجرة مشيرين الى نعم الله التي لا تحصى على ذلك البر، من هواء عليل وطبيعة جميلة، وأيام ممطرة، وخير وفير ومصادر رزق واسعة، إلى جانب سخاء السلطان وتقريبه لأهل العلم من بلاطه، وحاجة البلاد للقضاة. ولكن الله شاء ألا يكتب لي

للانقلابيين وقتل ضباطه الكثير من المهاجمين وسقط من ضباطه الكثير من الشهداء إلا أن العملية كانت أخطر وأكبر من قراءة رجال الدولة للمشهد.

وقبل ان يغادر أخبر الوالد أنه سيرسل إليه غدا سيارة القنصلية لتنقله إلى مبنى القنصلية ليستكملا حديثا بامتداد البحر الراعف بانعكاسات سارية بيت العلم في مسقط وبيت العجائب في زنجبار والقبة الارجوانية لتاج محل في بمبي.

مشيت الى المصعد مودعا ذلك العملاق الذي صادر جون أكيلو وعبيد كارومي بزته العسكرية ورتبته كضابط محترف وحلمه و دولته ووجوده، وبعثا به بعيدا عن شوانب القرنفل وحقول المهوجو الى مسقط ثغر الشطر الآسيوي للوطن وعاصمة الشطرين في دولة سعيد بن سلطان، ليسترد من جديد البزة العسكرية، ولكن في مؤسسة لا يرأسها (باليز ولا جاك سوليفان) ولا يتحكم فيها أكيلو، ولا كارومي بل السريلنكي ديسلفا مفتش شرطة عمان السلطانية، وليكون إتمام تلك الزيارة فحمدت الله على ذلك.

وحين عشنا مأساة السقوط ووصول العمانيين إلى الوطن وقد جردهم الانقلابيون من أملاكهم بدت تتضح الاسباب، ولعل أهمها أن العمانيين سلموا مقادير البلاد إلى الأجنبي واطمأنوا فغرقوا في شؤون الحياة، ولقد كانت للأجنبي مصالحه وارتباطاته التي تجب كل تعهداته.

قلت له إن الكتابات الزنجبارية عن السقوط تتحدث بسذاجة عن دولة لا تملك جيشا يحميها، بل مجرد أفراد من الشرطة سلاحهم البنادق البدائية، وبضعة مسدسات لضباطهم ولا يقودهم من أبناء جلدتهم بل أجير إنجليزي.

ونقلت للوالد ما قرأت عن ليلة السقوط في أكثر من مصدر وكيف تواطأ ذلك الأجير مع الانقلابي عبدالله كارومي فأرسل أكبر ضابطين عمانيين عنده في نزهة عائلية حيث غادر أحد الضباط الى بلدة (آرووا) على بعد ٢٤ ميلا شرق زنجبار وتوجه الضابط الثاني إلى (ماكوندوشي) على بعد ٤١ ميلا الى الجنوب الغربي، وذلك تحت ذريعة جس النبض لما ينوي أتباع حزب الأفروشيزاوي عمله. و بعد ليلة كثر فيها نباح الكلاب لدرجة أنهم تصوروا من فرط ثقتهم وإحساسهم الطاغي بالأمان أن البلدية تطارد الكلاب الشريدة.

وقد أطل الفجر ليؤشر الى أن الكلاب لم تكن تنبح بل كانت تحتج على المذبحة والتصفية في رقاب سكان زنجبار، وبأسلحة أفرغتها سفينة جزائرية بموافقة من أحمد بن بلة تحت ذريعة دعم الثورة العربية في ساحل إفريقيا.

وحين حاول الضابط سليمان الخروصي استعادة زمام الأمور والسيطرة على الموقف وذلك بقطع إجازته والتوجه الى مركز الشرطة في مويرة حيث يشرف على المركز المذكور ابن شقيقه الملازم محمد بن علي الخروصي فأجرى أتصالات بالقائد الأنجليزي سوليفات فلم يجد الاستجابة بل تم تثبيط همه بأن الأمور انتهت وزنجبار، أصبحت تحت قبضة الثوار، وأنها تودع سلطانها وعهدها. فيما كان محمد شامتي أول رئيس لزنجبار يجري سلسلة اتصالات سياسية من مركزشرطة مالينديي حيث يتحصن هو وعدد من الوزراء إلا أن كل الأبواب أوصدت في وجهه فبريطانيا رفضت تحريك قواتها المتمركزة في قاعدتها العسكرية في

كينيا بحجة ضرورة استئذان نيروبي لتحريك القوات، وحين تم الاتصال بالزعيم جيمي كينياتا قيل له انه نائم.

أما الرئيس التنجانيقي جوليوس نيريري فلم يخف تعاطفه مع الثوار بل كان عرّاب إمدادهم بالاسلحة من الدول الإفريقية، وكانت القاهرة تتحجج باستحالة التدخل العسكري لإنقاذ الموقف لأن ذلك سيهز وضعها في إفريقيا كراعية لثورات التحرر ولأن قواتها منشغلة بأمور أهم كالصراع مع إسرائيل وثورة اليمن.

وقد أطل فجر ذلك اليوم الأسود على زنجبار درة التاج البوسعيدي وهي في يد الانقلابيين وسلطانها يستقل سفينته إلى الغرب برعاية بريطانية. وبعد يومين كان مبعوث جمال عبدالناصر يسلم اعتراف ثورة يوليو وضباطه الأحرار بثورة الانقلابيين بحجة عدم إتاحة الفرصة للغرب لأن يعبث بشرق إفريقيا في حين أن الطبخة كلها تمت على نار بريطانية وعلى مرجل بريطاني.

وبرحيل السلطان الى منفاه الإجباري في بريطانيا عادت قوافل العمانيين الى أرض الوطن وعشنا مأساة عودتهم

السيد سعيد بن سلطان

في الفيحاء وفي غيل الدك تحديدا حيث تلونت الدروب باللواسي الزاهية الالوان وتعفرت السبلات السمائلية بغبار حكايات المحنة من افواه وألسن بريئة لا تعرف ما حصل لانها لم تكن جزءا من المشهد.

قد ذهب الكثيرون ليسترزقوا فاستوطنوا وتناسلوا وكبرت الشلنجات في سحاحيرهم وما زاد عن الحاجة صدروه الى البر العماني لشراء نخلة نغال تحمل بشائر القيض أو نخلة فرض توفر تمرا للشتاء الطويل وفي اضعف الايمان لاسترهان بيت يأويهم إذا رجعوا.

ذهبوا وطالت غيبتهم، وحين أرغموا على العودة لم يكن الحنين الى ارض زنجبار يعذبهم بل كان يؤلمهم أنهم خرجوا تاركين أملاكهم، وتاركين أرضا حين يرتع في افقها الغمام لا بد أن يمطر وفيها زنجيات يزرعن الحقل. وحين تغرب الشمس تكون سوداء افريقيا زوجة مطيعة تعد عصيدة الموز وتنثر الياسمين علي الوسادة لعماني في سحارته شلنجات ورجولة.

عاد العمانيون في النهاية وعادت معهم حكايات تتناسل بعفوية في استماتة لربط المشهد بشخوصه فيرددون ببغاوية جمشيد وكارومي وبريطانيا العظمى ورئيس الشرطة الخروصي ونائبه السكيتي ورجال الأفروشيرازي الذين هزوا اعمدة الدولة باسلحة الدولة.

اما المتدينون الذين عادوا وقد احتشد الناس لاستقبالهم في بنط مسقط وفرضة مطرح فكان يشتركون في ربط المشهد بخاتمته المريحة انها العقوبة الالهية وهي نفس النتيجة التي يختزل بها الوالد محنة أفريقيا.

قلت للوالد مداعبا لعله من حسن حظنا أنك لم تذهب إلى بر الزنج فلربما لو ذهبت لتغيرنا، ولارتدينا دشاديش مفتوحة الفلكة، وأخرجنا ياقة القميص من رقبة الدشداشة تأكيدا لإفريقيتنا، ولربما بدأنا صباحنا بالمندازي، وتغدينا بعصيدة الموز، وتقاسمنا قضمة مهوجو على العشاء ولربما حروف أبجديتنا السواحلية ستكون بالانجليزية، وتشاجرنا مع اطفالنا بالسواحلية، ونزاعنا مع الجيران بلغة اشبه بالعربية، ولربما لو ذهبت لطاب لك المقام فلن تعود، ولن نعود الى عمان.

و سنبقى هناك نشارك في حكم زنجبار، و نقرأ مقالات هاشل المسكري في صحيفة الفلق كل صباح على كأس من ماء النارجيل، ونتظاهر امام بيت العجائب، ونحتشد في المرفأ نستقبل السلطان العائد من رحلة تتويج ملك انجلترا، وننضم للجمعية العربية او الحزب الافروشيرازي، وربما نؤدب جون أكيلو من ان يلغينا وربما نثني جمال عبدالناصر من ان يعترف بزنجبار السليبة بعد ان اشتم في التغيير رائحة اليسار ونزق الثوار فتناسى العروبة والدين وسعيد ابن سلطان. وربما لو سافرت لكنا معك نشارك في صياغة خطاب محمد شامتي رئيس وزرائنا وهو يلقي خطاب انضمام زنجبار للامم المتحدة، ولكنا اليوم نتكلم سواحلية صافية وعربية مكسرة، وكأن السلطان برغش لم يجلب للساحل الافريقي مطبعة لنشر اللغة العربية، ولا الشيخ أحمد الخليلي علم أبناء عمان في ذلك الشطر الملحة والأجرومية ومدارج الكمال.

بدأنا يوما جديد في بمبي والمدينة تفوق من نومها بصباح ككل الصباحات الرطبة والمفعمة بالحيوية. وبعد تناول الافطار كان جرس الهاتف في الغرفة يستحثنا النزول لان سائق القنصلية ينتظرنا. زحمة بمبي وفوضوية مواعيدها فوتت علينا استئناف حديث الرجل الاسمر

زنجبار.. الطبيعة وما تبقى من الزمن العماني

عن القارة السمراء وعن اللحى الغانمة والوجوه الوضيئة والعمائم البيض التي تسطع في ليل افريقيا. لقد تأخرنا عليه رغم قصر المشوار مما اضطره الى المغادرة لحضور اجتماع للقناصل في بمبي دعي إليه على عجل، تاركا لرئيس مكتبه مسؤولية الترحيب بالوالد. إلا اننا فوجئنا بوجود فضيلة القاضي الشيخ هاشم بن عيسى الطائي في القنصلية جاء هو الآخر ليراجع الملحق الصحي محمد بن ناصر الهنائي في حجوزات العودة الى مسقط، فتهللت أسارير الوالد فرحا لهذه الصدفة التي تتحقق في بمبي ليستعيدا ذكريات سنوات من العمل معا في سلك القضاء واشتراكهما معا في نظر مئات القضايا في مسقط وخارجها فضلا عما يتمتعان به من روح الدعابة والتندر.

ويرتبط الوالد والشيخ هاشم بالكثير من المشتركات حيث عملا مع الامام الخليلي وجلالة السلطان سعيد وجلالة السلطان قابوس ولا تزال سمائل تتذكرالشيخ هاشم كأحد ابرز من مروا في حصنها وتركوا بصمة على تاريخها الحديث .

كانت مشاهد بمبي تتتابع من زجاجة التاكسي التي أقلتنا الى فندق سنجم جست هاوس حيث مرافقنا بشدور يواصل تدعيم العلاقات العمانية الهندية

الفندق في شارع حي مفعم بالنشاط يجسد روح بمبي حيث الاسواق ودور السينما وعوادم سيارات الهند العتيقة والحمالين والمتسولين وذوي العاهات، وما ان دخلنا الفندق إلا وعمان هناك تطبخ العوال وتقلي السمك النهري وتقيم في كل غرفة بسنجم سبلة عمانية بقهوتها وحكاياتها روائح (الحل تراب) تملأ المكان وزرقة نار الستيما البريموس تتلألأ تحت صفرية كبيرة لارز البسمتي في بلد البسمتي، وصحون تمر الفرض ورائحة القهوة تستدعي روح سبلة المظلة في سمائل وديسات الحلوى شهود عقد قران خلفان

وثائق تتكدس بإهمال في دار المخطوطات بالجزيرة الخضراء

المهموم هو الآخر بتطوير العلاقات العمانية الهندية كما هو الحال مع بشدور.

وسط ذلك الكرنفال من الألوان والأزياء والروائح والنكهات واللهجات شقفنا طريقنا الى (كاكاه) مدير السنجم ذلك الرجل الاشيب الذي يمارس أبوة بحكم العمر لنزلاء السنجم، ناصحا ومحذرا وموجها، فهو مستودع اموال النزلاء وحافظ جوازاتهم وقبل ذلك مستودع اسرارهم وذكرياتهم.

والفندق بسجلاته تاريخ للعمانيين في الهند من مرضى وتجار وسياح، وكاكاه هو الذي يسطر ذلك التاريخ، سألناه عن بشدور البلوشي فلم يكلف نفسه عناء التحقق عن الاسم، أومشقة البحث عن غرفته، فقد كان رقمها حاضرا على لسانه، كما هو حضور اسم بشدور في ذهنه.

دخلنا غرفة بشدور الذي استقبلنا بوجه حزين ورجولة منكسرة .وحين سألناه قال إنه اضطر لتطليق ماريام، ولكنه سيتزوج باخرى، فكان الوالد تارة ينصحه، وأخرى يوبخه على هذا الصنيع القبيح في التزوج والتطليق، وتارة ينكت عليه وعلى الهنديات قليلات العقل مثله، اللائي يقبلن مثل هذه السلوكيات .

امتلات غرفة بشدور بالعمانيين الذين جاءوا للترحيب بالوالد وليتنفسوا رائحة عمان ، فقد أمضى بعضهم ما يزيد على الشهر منقطعين عن أسرهم، وبعضهم لا يستطيع التواصل لعدم وجود خدمات هاتفية في قريته، وبعضهم لم

تتجذر فيه بعد ثقافة التواصل الهاتفي في ذلك الوقت المبكر من اواخر السبعينات.

كان هناك من بين من عرفناهم منصور التوبي من بركة الموز وهو من أصهار زميل لي في الجريدة هو الشيخ سالم بن رشيد الناعبي كما كان هناك حمد بن عامر النزواني ومحمد بن جمعة بن مسعود من سمائل، وثلاثة عرفوا انفسهم انهم من اهل فنجاء، إلى جانب بعض الإخوة المطرحيين الذي نصادفهم في حارات العريانة وجبروه واللولوة.

تشعب الحديث في غرفة بشدور أو سبلة بشدور عن عمان الى الهند، ليتحول الى جلسة لأهل الذكر يسألون فيها الوالد عما يعن إليهم معرفته بأمور دينهم، خاصة فيما يتصل بالعبادات كالصلاة في السفر، والجهل بالاتجاه الصحيح للقبلة وما يتعلق بالصوم في السفر، ودفن الميت بعيدا عن وطنه في بلاد غير مسلمة ، وما يتصل بالأكل في المطاعم التي قد تستخدم شحوما مجهولة المصدر، واللحوم غير المذكاة، وسئل عن اضطرار النساء كشف أجسادهن للأطباء الرجال بل ومن الهندوس أيضا فقال:

كما إذا اضطرت فما من بأس
تظهرها الى طبيب الناس
بمحضر من القريب كالرحم
أو زوجها والأب صح أو كأم
وهكذا لها تداوي الرجلا
بمحضر يمنع فعلا مبطلا

وسئل عما درج عليه العمانيون من الدعاء مع غسل كل جارحة من الجوارح أثناء الوضوء، فقال إن الدعاء حقيقة التعبد وهو مخ العبادة والدعاء في الوضوء الذي درج عليه الناس وتناقلوه جيلا بعد جيل هو من المستحسنات التي من أداها سيؤجر عليها بإذن الله، إلا أنها لم ترد عن خير البشر، أو أنه كان يدعو بها في وضوئه، أو أخبر بها أحدا من اصحابه، ولكن الانسان يتقرب الى الله بالذكر.

كما سئل عن وضوء الاعضاء الملفوفة بالضمادات فقال إن في الدين يسر، وهناك رخصة في المسح على الجبيرة للمضطر، وسئل عن الخطبتين في صلاة الجمعة وقال إن الاولى واجبة والثانية زيادة في الفضل.

وسئل عن التحديد الصحيح للقبلة في السفر، فقال إن

من آثار قصر المرهوبي

الكثير من الشواهد تساعد على التحديد كقبور المسلمين، والمساجد القائمة والشمس والقمر والنجوم، ففي عمان تكون مكة جهة الغرب فنتجه في صلواتنا جهة الغرب، وفي الهند في اجزاء منها على نفس اتجاهات عمان فتكون مكة في الجهة نفسها.

والأهم من كل ذلك التحقق والتيقن والسؤال، فأنتم في بلاد حكومة كافرة، ولكن بها مئات الملايين من المسلمين الذين حددوا الاتجاه الصحيح للقبلة فاتبعوهم، كما تطرق الحديث عن الانساب وتعدد الاقوال فيها بين النسابة فأجاب بما سمح به المقام.

ولم تخل سبلة بشدور من دعابات وقصص وحكايات ومواقف للعمانيين في الهند، وحين انفض سامر الجمع وبقي الوالد وبشدور يتحدثان عن العلاج تسحبت انا للغرفة المواجهة حيث سبلة عمانية اخرى يديرها الشيخ منصور التوبي، ويسرد فيها قصص الانبياء على الطريقة العمانية، فكان يسترسل في الحديث عن نبينا موسى عليه وعلى نبينا الاكرم افضل الصلوات وأزكى التسليم، فيقول منصور التوبي: كان سيدنا موسى (واحد فلك متعافي) ولما حاول خصمه أن يصرعه (حزه موسى بجمع، وسدحه إلين فلحت روحه)، وكان الآخرون يردون (وابوش) . ثم يواصل التوبي سرد قصص الأنبياء والأخيار بنفس اللهجة والروح وسط إعجاب حضور حلقته من الذين يستمتعون بالمآثر والعبر، أو يحرثون الزمن الممل في الغربة ، بمثل هذه السير ، أو الملح المفيدة أو الفكاهات العمانية